الدرس الثالث

قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}، ما أسعدهم وما أعظم حظهم! فخشية الله تعالى من أقوى دلائل الإيمان؛ لأنها نابعة عن العلم بالله تعالى، بكمال أسمائه وصفاته وقدرته وعزته وبطشه وعظيم أوصافه، فهذه الدلائل توجب للعبد الخشية قال الله تعالى: {الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء: ٤٩]، فلا يمكن أن يقوم إيمان إلا بالخشية، ولذا قال الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨]، وقال الله: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: ١٠٧ – ١٠٩]، فالذي أدرَّ مدامعهم وأخرَّ جباههم هو ما وقر في قلوبهم من العلم بالله تعالى فالخشية تصحبهم في الخلوة والجلوة والسر والعلن، وليست الخشية بالتصنع والتظاهر، بل الخشية تكون في القلب، كما أن المحبة والرجاء يكونان في القلب، فهذه الثلاثة الخوف والمحبة والرجاء هنَّ أمهات العبادات القلبية. ومما يروى أن رجلًا خلا بامرأة في ليلة قمراء كثيرة النجوم والكواكب، فقال لها: إني أحبك. فقالت له: وأنا والله أحبك، قال: وإني أحب كذا وكذا، يعرض بالفاحشة، قالت: وأنا أحب ذلك، قال: فما يمنعنا ولا يرانا إلا الكواكب، فقالت: فأين مكوكبها؟ فخر مغشيًا عليه. فهذه الكلمات لامست عصبًا حساسًا، فذكرته بالله تعالى فازدجر. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ)[٢٨]، وكما قال الله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: {وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ } [يوسف: ٢٣]، فهذه الخشية يجب أن يستزرعها الإنسان في قلبه

[٢٨] أخرجه البخاري- (٦٦٠)، ومسلم- (١٠٣١)، متفق عليه.

لتعصمه من الوقوع في الفحشاء، فالخوف سوطٌ يضرب الإنسان إذا هّمَ أن يحيد يمنة أو يسره، فيعالج نفسه بالخوف، ويعلم بأنه إذا أوصد الأبواب وأرخى الستور فإن الله يراه قال أبو العتاهية:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل برهة ولا أن ما تخفي عليه يغيب

قوله: {بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}، فهم إن خشوا الله في الغيب، فسيخشونه في الشهادة من باب أولى، والمغفرة: هي الستر والتجاوز، {كَبِيرٌ}: وحسبك بشيءٍ وصفه الله بهذا الوصف! أي لهم ثواب عظيم من أنواع النعم والخيرات التي يجدونها في الجنة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أَلَا هَلْ مُشَمِّرٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَنَهَرٌ مُطَّرِدٌ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ ، فِي مَقَامٍ أَبَدٍ ، فِي حَبْرَةٍ وَنِعْمَةٍ وَنَضْرَةٍ فِي دَارٍ عَالِيَةٍ سَلِيمَةٍ بَهِيَّةٍ» فَقَالُوا: نَحْنُ الْمُشَمِّرُونَ لَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " قُولُوا: إِنْ شَاءَ اللَّهُ)[٢٩]، قال الله تعالى: {لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الزمر: ٢٠]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ)[٣٠]، وأعظم نعيمٍ يناله أهل الجنة هو النظر إلى وجه الله الكريم، قال الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٢، ٢٣].

[٢٩] أخرجه ابن ماجه (٤٣٣٢)، وابن حبان (٢٦٢٠)، والطبراني في "الكبير" (١/ ٢١-٢٢)، وقال الألباني في " السلسلة الضعيفة والموضوعة" (٧/ ٣٧٠) ضعيف.
[٣٠] أخرجه البخاري- (٣٢٥٦).

قوله:{وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، كقوله: {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [الرعد: ١٠]، فلا يخفى على الله خافية، قال الله تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: ١٩]، فسواءٌ أسر القول في خاطره أو أعلنه وخطب به، فهما بالنسبة لله سواء لا تخفى عليه خافية، قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من النبي صلى الله عليه وسلم فيخبره جبريل عليه السلام، فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم كي لا يسمع رب محمد، فنزلت: وأسروا قولكم أو اجهروا به. يعني: أسروا قولكم في أمر محمد صلى الله عليه وسلم.[٣١] هكذا ظنوا فقال الله تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: ٨٠]، فينبغي للمؤمن أن يستصحب هذا المعنى في قلبه، أنه مكشوف أمام الله تحت سمعه وبصره.

قوله: {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، وأن الله عليم بخبايا الصدور ومكنوناتها فأين تذهب؟، فصاحبك قد يكون إلى جوارك ولا تعلم ماذا يجول في خاطره، ولا يعلم ما يجول في خاطرك، لكن الله تعالى يعلم.

قوله: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}، هذه حجة عقلية أقامها الله تعالى. وقد اختلف المفسرون في قوله: (من)، هل المقصود الخالق أم المخلوق على قولين:

القول الأول: ذهب ابن كثير إلى أنها بمعنى ألا يعلم المخلوقُ خالقَه.

القول الثاني: وذهب الشيخ عبدالرحمن السعدي إلى أن معناها، ألا يعلم الخالق بمخلوقه. وهذا أقرب، أي بما أنه هو الذي خلقه وركبه وأعده وأمده، فهو بصير به؛ لأن من ابتدأ

[٣١] تفسير القرطبي- (ج ١٨- ص ٢١٤).

خلقه يكون عليمًا بخفياه، وهذا مناسب لما قبله من أن الله يعلم سره ونجواه أسر القول أو جهر به، فعلل ذلك بقوله: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ)، والله تعالى أعلم.

قوله: {اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}، هذان اسمان كريمان من أسماء الله الحسنى.

اللطيف: هو الذي يوصل الإحسان بطريق خفي. فيوصل إليهم ما يحتاجون إليه من منافعهم وقِوام معيشتهم، بطرق قد لا يتفطنون لها، ويدفع عنهم من السوء والأضرار أمورًا قد لا يتفطنون لها.

الخبير: هو العليم بدقائق الأشياء، وهذان اسمان كريمان تضمننا وصفين: وهما اللطف والخبرة له سبحانه وتعالى.

قوله: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا}، هذا من دلائل الربوبية التي ينبغي للإنسان أن يسرح فيها طرفه وينتفع بشواهدها المبثوثة في الكون، فإن ما في السموات والأرض لبناء العقيدة، فلا يحتاج الإنسان إلى كبير جهد ليستدل على ربه وخالقه ومعبوده، فإنها تملأ فجاج الأرض وأقطار السماء فالأرض أُمنا التي منها خلقنا والتي إليها نعود ومنها نبعث، ومعنى ذلولا: أي مهيئة للسير فيها والحرث والزرع والبناء فهي ليست جموحًا بل هي ذلول. كما يقول الناس عن الجمل: إنه ذلول إذا كان منقادًا سهلً وليس نافرًا، فالله تعالى امتن علينا بأن جعل الأرض التي نعيش عليها ذلولًا كما قال في آية أخرى: {أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا} [النمل: ٦١]، فجعلها قارة مستكنه لنتمكن من العيش عليها، أرأيتم لو كانت تضطرب وتميد، فلن يهنأ لنا عيش ولن نتمكن من البناء والحرث و الزرع.

قوله: {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا}، أي في دروبها ووديانها وأعطافها ونواحيها وكل شيء فيها، وقيل: مناكبها جبالها؛ لأنهم كأنما أخذوها من المنكب وهو الشيء المرتفع من الإنسان،

والظاهر أنها تدل على ما هو أعم من ذلك، فأتاحها الله لنا لنضرب في الأرض يمنة ويسرة ونستغلها بما أودع الله فيها من الخيرات.

قوله: {وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ}، وهذا دليل على أن الله تعالى أودع في الأرض الرزق الذي يكفي ساكنيها بحيث نستنبطه ونستخرجه، فمن بديع صنع الله تعالى أن جعل هذه الأرض كافية لمن يعيش عليها، تمدهم بما يحتاجون إليه، فقد سخر الله تعالى ما في السموات وما في الأرض لمعيشة الإنسان، فأنزل من السماء ماء وأنبت من الأرض زرعًا، دون أن يحتاجوا إلى شيءٍ من خارجها، وفي الآية لفته بأن الرزق من الله تعالى ولهذا قال الله تعالى: {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ} [العنكبوت: ١٧].

قوله: {وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}، وما أجمل هذا الختام لهذه الآية، أي أنكم ستعيشون ما شاء الله لكم في هذه الأرض وتمشون على ظهرها، ثم تموتون وتدفنون فيها ثم تنشرون منها والنشر: هو البعث، فهذه الحركة والمعيشة لا بد أن تنتهي إلى غاية قال الله تعالى: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وقال: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} [القيامة: ٣٦ – ٤٠].

قوله: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ}، يظهر الله عظيم قدرته على عباده؛ ليعظهم فالذي في السماء هو الله تعالى وقوله تعالى: {مَنْ فِي السَّمَاءِ}، أي من على السماء وهذا من أدلة الفوقية؛ فإن الله تعالى له العلو المطلق في ذاته وأسمائه وصفاته، والعلو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: علو الذات.

النوع الثاني: علو القدر.

النوع الثالث: علو القهر.

فأما علو القدر وعلو القهر فلا ينازع فيهما أحد من أهل القبلة؛ فلا ريب أن الله هو القاهر فوق عباده، فلا يخرج أحد عن ملكه سبحانه وتعالى قال الله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: ١٨]، وكذلك علو القدر فله المثل الأعلى، فلا يمكن لشخص يدعي الإسلام أن يصف الله بالنقص والعيب، بل لابد أن يعتقد أن لله المثل الأعلى. وإنما وقع الخلاف بين أهل القبلة في علو الذات، فأهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأصحاب القرون الفاضلة ومن سار على دربهم يقرون بأن الله تعالى سبحانه بذاته فوق سمواته مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه ليس فيه شيءٌ من خلقة، ولا في خلقه شيءٌ منه، وهذا هو الذي يجب اعتقاده. ولما سأل النبي صلى الله عليه وسلم الجارية: (قَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ الله، قَالَ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ)[٣٢]، فلا ريب أن ربنا سبحانه وتعالى فوق سمواته. و(في)، في لغة العرب تأتي بمعنى (على)، وشواهد هذا كثير منه قول الله تعالى هاهنا: {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا}، أي على مناكبها وقوله: {فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ} [النحل: ٣٦]، أي عليها فليس المقصود أن يتخذ الإنسان نفقًا، وقال فرعون: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه: ٧١]، أي على جذوع النخل، كذلك قوله: {مَنْ فِي السَّمَاءِ}، أي على السماء، وهناك توجيه آخر، أن يقال: إن السماء ليس المراد بها السماء المبنية وإنما المراد بالسماء العلو، فكل ما علاك فهو سماء والسماء في كلام العرب لها ثلاث إطلاقات:

الأول: تطلق على السقف المحفوظ المقابل للأرض.

الثاني: تطلق على المطر. ومنه قول الأعرابي:

[٣٢] أخرجه مسلم- (٥٣٧).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

إذا نزل السماء بأرض قومٍ *** رعيناه وإن كانوا غِضابا

الثالث: تطلق على كل ما أظلك.

فسماء هذا المسجد سقفه والمعنى: أأمنتم من في العلو، والمقصود على كلا التوجيهين أن الله تعالى له العلو المطلق، وأنه يحذرهم نفسه فيقول: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ}، ولقد وقع هذا في طيات التاريخ، وفي الراهن و سيقع في المستقبل من أمور الخسف ما يظهر للناس عظيم قدرة الله تعالى، ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ - فَذَكَرَ - الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ)[٣٣]، فالله قادر على أن يخسف هذه الأرض الثابتة التي نطمئن بالسير عليها، فلو شاء الله أن تميد بهم لمادت وخُسفت بهم.

ومعنى قوله: {تَمُورُ}، أي تضطرب وتميد.

قوله: {أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا}، وهذا طريقة أخرى من طرق الخسف وهو أن يرسل الله الحاصب كما أرسل على قوم لوط عليه السلام والعياذ بالله.

والحاصب: هو حجارة من السماء تنفصل من الأجرام السموية فتحصب الناس فتهلكهم.

وعلى أبرهة عندما أراد هدم الكعبة.

قوله: {فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ}، أي كيف يكون إنذاري.

[٣٣] أخرجه مسلم- (٢٩٠١).

قوله: {وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} [الملك: ١٨]، فكما ذكر الله لهم الدلائل الأرضية من الآيات الكونية، ذكر لهم سننه الكونية في خلقه، كقوم عاد وقوم صالح وأهل مدين وآل فرعون، فانظروا كيف كانت النكارة التي وقعت عليهم بسبب تكذيبهم، فيالها من موعظة بليغة.

الفوائد المستفادة: من آية ٦ إلى آية ١٨ :

الفائدة الأولى: إثبات النار وشدة عذابها وتغيظها على أهلها، وكونها في أسفل السافلين.

الفائدة الثانية: الإيمان بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان الآن موجودتان لا تفنيان.

الفائدة الثالثة: إثبات خزنة النار من الملائكة.

الفائدة الرابعة: العقوبة الأليمة بسؤال التبكيت والتوبيخ.

الفائدة الخامسة: أن العبرة بالحجة الرسالية.

الفائدة السادسة: بطلان الاحتجاج بالقدر.

الفائدة السابعة: أهمية الإيمان بالكتب المنزلة.

الفائدة الثامنة: أنَّ الكفر أنواع: منه كفر الجحود، وكفر التكذيب.

الفائدة التاسعة: معرفة طريقة الكافرين في مواجهة الأنبياء والمرسلين وهو التضليل والتكذيب والتشويه، وهو ما يسمى بلغة العصر (الحرب الاعلامية).

الفائدة العاشرة: كمال عدل الله، واستحقاق الكافر للعقوبة واعترافه بالذنب.

الفائدة الحادية عشرة: الدعاء بالجملة على الكفار وأهل البدع والأهواء بالسحق.

الفائدة الثانية عشرة: فضيلة الخشية بالغيب وأنها من أخص صفات المؤمنين.

الفائدة الثالثة عشرة: إثبات موعود الله للمؤمنين.

الفائدة الرابعة عشرة: كمال علم الله وإحاطته بمكنونات الصدور.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الفائدة الخامسة عشرة: أهمية الإخلاص في العمل الظاهر والخفي.

الفائدة السادسة عشرة: استعمال القرآن للحجج العقلية المقنعة.

الفائدة السابعة عشرة: الرد على المتكلمين الذين يقولون أن القرآن فيه فقط أدلة نقلية ولا توجد فيه أدلة عقلية.

الفائدة الثامنة عشرة: إثبات اسمي الله (اللطيف) و(الخبير) وما تضمناه من صفاتي (اللطف) و(الخبرة).

الفائدة التاسعة عشرة: عظيم قدرة الله، وخطر الأمن من مكر الله.

الفائدة العشرين: عظيم إنذار الله وعظم إنكار الله.